مفهوم الإنسانية

بين الغزالى وسارتر

للدكتور عادل العوا

من المسائل العسيرة التى اختلف حولها المفكرون ، وافترق الفلاسفة إلى شيع وأحزاب ، فتضاربت اراؤهم وضلت سهامهم ، مسألة المعيار الحقيق لمدنية الإنسان ، ماهو هذا المعيار ، وكيف يكشف البشر عن القيمة الصادقة العميقة لمدنيتهم التى بها يعتزون ، ولها يمجدون ؟

ونحن نرى أن افضل حل يستطيع الباحث المنقف أن يقره اليوم ، هو قياس المدنية بالإضافة إلى علاقة الناس بعضهم ببعض ، هذا مايسميه الفلاسفة « علاقة الآخر » ، وفى رأينا أن هذه العلاقة تكون أكثر ما تكون دلالة إذ تبين العلاقة القائمة بين شطرى البشر فى محل بيئة متمدنه ، ونقصد بها علاقه الرجل بالمرأة . فهذه العلاقه تصلح للكشف عن جوهر المدنيـــة وحقيقتها ، وتعرب عن الفلسفة الصريحة أو الضمنية السائدة فى مجتمع من المجتمعات ، وفى عصر من العصور .

ولن نستطيع فى هذا المقال الوجيز ان نعرض نماذج المفاهيم الإنسانية المختلفة كثرة وتنوعاً فى الزمان والمكان .

ولذا فاننا سنقتصر على الموازنة بين مفهومين متقابلين ، اخترنا احدهما كانموذج لبعض ما تتجه إليه الحضارة الغربية عامة ، ولا سيما فى طائفة معينه من الأوساط .

لقد اخترنا أن نقتبس مادة بحثنا فى الناحية الأولى من فليسوف مسلم

شهير هو حجة الاسلام ، الغزالى ، واخترنا أن نقتبس مادة هذا البحث فى الناحية الثانية من فليسوف ملحد شهير هو حجة الكفر المدعو جان بول سارتر زعيم الوجودية الفرنسية فى الغرب .

يرى الغزالى أن الزواج هو العلاقة المشروعة الوحيدة بين الرجل والمرأة لأن النكاح سنة ماضية ، وخلق من أخلاق الأنبياء . وأن فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد . وقد شغف بتعداد فوائد الزواج فوجدها ماثلة فى الولد وابقاء النسل وكسر الشهوة وتدبير المنزل وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس .

فبالزواج ينال المرء دعاء الولد الصالح ، وشفاعة الأطفال يوم القيامة ويدفع غوائل الشهوة ، ويغض الطرف ، ويحفظ الفرج ويتحصن من الشيطان وغوايته ، ولعل ادق ما فى الأمر ان تكون لذة الدنيا دليلا على لذة الآخرة .

يقول الغزالى : ان الحكمة الإلهية جمعت تحت شهوة واحدة حياتين : حياة ظاهرة وحياة باطنه . فالحياة الظاهرة هى حياة المرء ببقاء نسله ، فانه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هى الحياة الأخروية .

فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام ، تحرك الرغبة فى اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيواظب المرء على ما يوصله إلى نعيم الجنان .

ولا ينكر الغزالى الآفات القليلة التى تصحب الزواج وأهمها أن يدخل المتزوج فى الأكثر فى مداخل السوء ، فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه ، أو أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى ، وجاذباً له إلى طلب الدنيا ، بكثرة جمع المال وادخاره .

ويهمنا فى هذا الحديث أن نخلص إلى بيان آداب المعاشرة ، وعلاقة

الرجل بالمرأة ، يعترف الغزالى بأن من واجب الرجل أن يكون حسن الخلق مع المرأة ، وان يحتمل منها الاذى عند الاقتضاء .

ولكن السر فى هذا الموقف الكريم يرجع إلى اعتقاد الرجل بضروره الترحم على المرأة لقصر عقلها .

فاذا شاء أن يطيب قلبها بالمداعبه والمزاح والملاعبة ، وجب عليه أن يمزج المداعبة بالحزم ، وألا يفتح باب المساعدة على المنكر :

وينقل الغزالى ما روى عمر إذ قال : خالفوا النساء ، فان فى خلافهم البركة .

وقد قيل . شاوروهن وخالفوهن فاذا عجبت للامر فاعلم أن السبب فى رأى الغزالى هو الاعتقاد المطلق بأن من حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء وسمى الرجل سيداً ، فاذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا .

وجملة القول : إن فى النساء شرا ، وفيهن ضعفاً ، فالسياسة والخشونة علاج الضعف ، وكل زوج طبيب والطبيب ، الحاذق يقدر العلاج بقدر الداء

بقيت مشكلة الغيرة التى يثيرها الغزالى ويرى ان لها حلا قاطعاً وهو عدم خروج المرأة إلى الأسواق ، وألا يدخل عليها الرجال .

قيل لفاطمة : أى شىء خير للمرأة ؟

قالت : الا ترى رجلا ، ولا يراها رجل .

ورأى معاذ امرأته تنظر فى الكوة فضربها .

ورآها تدفع إلى غلام تفاحة قد أكلت منها فضربها .

لننتقل إلى فلسفة الالحاد ، ولننظر موجز آراء سارتر فى علاقة الرجل بالمرأة بوجه خاص .

ان زعيم الوجودية يكره القيود . ويكره النظام ، ويكره الأسرة ، ويكره الزواج ، ويمقت البيت والأطفال ، ويمجد العزوبة ، ويدافع عن العزب ، حتى فى نزعه والوفاة .

دخل أحد أبطال (سارتر) مرة متحفاً رسمياً فأبصر أول ما أبصر لوحة اهدتها الدولة للمتحف ، وهى تمثل رجلا عارى الجذع ، صدره اخضر اللون ، اخضرار جثث الموتى ، جثته ملقاة فوق سرير يتم اضطراب اغطيته عن طول أمد النزاع .

لم يعش هذا الرجل العزب إلا لنفسه ، وقدمات وحيداً ولم يكن على مقربة منه أى إنسان ليفحص عينيه بعد موته ..

ثم يتابع زائر المتحف جولته فيشاهد أكثر من مائه وخمسين لوحة تمثل أناسا عرفوا الحياة وانزلقوا نحو الموت ، بعد ان تزوجوا وأنجبوا أطفالا ، وكل واحد منهم سيذهب الى الآخره ليطالب بقسطه فى الحياة الأبدية كما يستحق ، ويرى (سارتر) أن لهؤلاء حقا فى نوال كل شىء لهم حق الحياه وحق العمل وحق الثروة وحق المجد وحق السلطة والاحترام ولهم أخيرا حق الخلود

ينتقد (سارتر) هذا الرأى الذائع ، المعقول ، المنطق ، العامى ، ويرى أن خير علاقة تربط الانسان هى علاقه العبث واللامبالاة . يقول : « يتهمونى بأنى أقضى حياتى فى المقهى »

والحق أننى لاأستطيع أن اشتغل إلا هناك . إن المقهى يمتاز عندى بصفة هامة ، وهو مكان اللامبالاة .

فأنا فى المقهى لا أتعلق البته بأى كان من الاشخاص الذين يتعاقبون حولى وهم كذلك لايأبهون لى ، ولا يتعلقون بى .

أما علاقة الرجل بالمرأة ، فى غير نطاق الشرع والزواج ، فان سارتر

يصفه لنا مبينا كيف تفكر المرأة ، فى جسدها ، وتخون نفسها قبل أن تخون شرفها كل ذلك يدافع استماعها لقول رجل يمدح جمالها ، ويتملق بشهوتها وغريزتها

يقول (سارتر) : « ضرب الرجل موعدا مع امرأة شابة ، فهى الآن فى طريقها للقائه .

أنها تعلم حق العلم النوايا التى يبيتها هذا الرجل نحوها ، تعلم أنه لابد وأن يتخذ فى وقت ما القرار الحاسم المحتوم ، ولكنها ترغب فى تأجيل التفكير فى هذا القرار ، ويصرف النظر عن النوايا المبيته وتعمل على أن يقوم بين الرجل وبينها تواضع اصطلاحى تخدع نفسها به ، وتود أن تؤمن بقوله المحتشم ، وموقفه الراهن الموقوت

ولكن ما أن يتم اللقاء ، ويمسك الرجل بيدها حتى تدعه يفعل ، فتحمل نفسها على الاعتقاد بان يدها لا يمكن أن تتحرك بين يدى الرجل اللاهيتين ، أن يدها ليست منها ، هى تتجاهل يدها

أنها تجعل يدها بمثابة شىء ، فيسلك جسمها سلوك الأشياء المنفصلة التى ليست ترضى وتقبل ، وليست تقاوم وترفض .

* * *

.. عاش الغزالى فى القرن الثانى عشر الميلادى ويعيش سارتر فى القرن العشرين ، وأن فى الميلاد العربية اليوم انصاراً لكل هذين المذهبين المتباعدين ومايقوم بينهما من مذاهب متوسطة ، ونظريات مختلطه ، فالغزالى يقترح مفهوما للانسانيه لايقوم على المساواة بل على الرحمة ، رحمة الرجل بالمرأة لقصر عقلها .

وسارتر يقترح فلسفه عابثة ثائرة فردية ، تطلب من الانسان أن ينفذ إلى أعماق وجود الارض أى إلى فراغ رهيب لايمكن أن تملأه ظروف

عامة حتى يصبح اعتباره أصلا لقاعدة أو نظام أو قانون

أن انسانية الغزالى انسانية متزنة عاقلة ذات مذهب اخلاقى واجتماعى ثابت محدود ، ولكن الزمن قد أتى فيما يظهر على بعض تفاصيلها فباتت لا تصلح لانسان اليوم والغد .

وأضحى من الضرورى العمل على تحويرها وتعديلها حتى تصبح الكرامه الانسانية هى المعيار العام الوحد الذى ينظم علاقة الافراد بعضهم مع بعض على ، قدم المساواه الصحيحة ، ولو كانت المساواه مساوا الرجل بالمرأة والانثى بالذكر ، أما انسانية (سارتر) فهى فلسفه متشائمة تالف التبديد والتحول ، وقد أكره الانسان فيها على أن يحيا حراً بانطلاق لا يتفق مع القيود والحدود ، وكل ثبوت فى نظر الوجوديه الملحدة عبء ثقيل ، حتى ثبوت العفه والعفاف .

، أجل ذاكم الحلان المتباعدان اللذان يمكن أن ينصرف الفكر الشرقى الآن نحو احدهما ليعتنقه ويعشقه .

ويتعصب له فيسىء إلى سواه أو يحمد عليه ، انهما حلان متغايران ولكنهما حلان لهما حقيقه راهنه فى مجتمع اليوم ، ولنا أن نتساءل ختاما فى أى منحى من هذين الاتجاهين سنختار فى الغد القريب أو البعيد ، بل فى أى منحنى من هذين المفهومين للانسانيه ستقسر المدنيه على أن تسير فيه بعد اليوم ؟

عادل العوا